بين الكنيسة والبيت

أنا ومار جرجس

بيني وبين كنيسة مار جرجس المْتَيْن صداقة قديمة، صداقة صيفيّات يفاعتي، قدّاس الأحد و«بِرشان» بونا عبد الأحد وخدمة بونا مخايل بدءًا بحمل حِقّ البخّور أمام المذبح ثمّ المبخرة فقراءة رسائل بولس إلى أهل كورنثيا وغيرها، وهكذا كلما ارتقينا بالإدراك علّقنا على صدورنا الطريّة نياشين المعرفة الكنسيّة.

كانت النُّزُهَات الشتوية من بيروت الى المْتَيْن نادرة، غير أنها كانت غنيّةً، إن حصلت، لاسيّما عندما «تُرَبْعِن» الدنيا ويَحِلُّ في نهايات نيسان عيد شفيع تلك الكنيسة، جارتنا!

ليلة العيد تتحوّل الكنيسة مهجعًا للمؤمنين وملجأً للمعذّبين ومبعثَ فرح لا قبله ولا بعده لأولاد الرعيّة من بناتٍ وبنين، إذ تنقلب قاعة السجود الى قاعة مَنامَة كبرى تضمّ كلّ من جاء بفراش ولحاف وكتاب ومسبحة صلاة. «فَرَشتْ» لنا أمّي في إحدى السنوات الى جانب الجارة بربارة بو نادر الترشيشي سلامة، وفي سنة أخرى الى جانب خالتي نُهى التى لم تكن قد تزوّجت بعد، من العزيز منير الحاج، نُهى التي كانت تؤازر أمي في إحتضاننا كلّما أصاب بيتنا مصاب كمثل وفاة والدي في بداية ستّينات القرن الماضي وكنتُ وأخي وأختي بين طفل ورضيع.

كنيسة مار جرجس هي امتداد لبيتنا في حيّ المَنْطرة، وبيتنا كما بيوت أعمامي كان فرحة استقبال وصبحيّة قهوة بعد قدّاس الأحد في الصيف كما في الشتاء.

وبين الكنيسة والبيت صوتان يجذبانني أكثر فأكثر إلى تلك الديار. نقيق ضفادع الربيع صباحا ومساء، وخرير الماء في حوض السقي المجاور للغرفة التي أنام فيها.

كنت أظنّ أنّ ذلك العالم الكامل والمتكامل هو لي دون سواي، غير أن تطاولي للمبارزة في «تربيعة» الجرس، جرس مار جرجس كشف لي أَنْ حولَك «يا صبي» مَنْ لا تصل إلى مستواه في إعطاء الجرس نغمًا لا تستطيعه إلّا القامات الباسقة والعضلات المفتولة.

في زمن الآباء «المربّعين»، كان هناك أحمد بن علي حسين القنطار وشقيقه سالم وشقيقهما محمود وجرجس وطانيوس الترشيشي سلامة وجان الخوري النجّار، وشباب بيت أسعد الجبيلي، وشباب بيت الحلبي وفي طليعتهم أمين.

كان أولئك الشباب فريقًا متكاملًا في دقّ الجرس «نتعًا» و«شقلبةً»، يتناوَبون على تربيع جرس مار تقلا كلّما آن أوان عيد شفيعة قرية المروج. وكم من مرّة ربّعوه و«شقلبوه» وكم من مرّة كسَروه!

أمّا على «دَوْرِ» الأبناء فكانت صولات خالد سالم القنطار وزياد محمود القنطار وجورج ابراهيم حبيقة وعماد النجّار، جميعها قامات تجعل من ضرّابة الجرس تربّع لا بل تُخمّس وتُسدّس. ورحم الله جوزف نجيب أبو سليمان الذي كان يقلب الجرس، جرس مار يوحنّا، «فوقاني تحتاني»، إذ عندما يتناول الحبل يجمّده أرضًا بإصبعين لينتفض واقفًا ومُعيدًا للحبل أقصى مداه في فضاء تلك الكنيسة.

الجرس لم يكن فقط زغردة في عيد، ولا نشيجًا في حزن بل كان دعوةً إلى الصلاة.

ثلاث تربيعات تهيّئ للشروع في القدّاس، تفصل بين التربيعة والأخرى عشر دقائق، حتى إذا ما تحضّر الكاهن، أشار بقرع جرس بداية الذبيحة، وكنا نسمي ذلك الطنين المتتالي جرس «البَدْوة»، والبدوة كلمة حملناها معنا من قرانا الشمالية، ولما حللنا في الجبل الأوسط صارت «البدوة» «بداية» أو ابتداء صلاة.

بين «مَرْبى» البيت و«مَرْبى» الرّهبان

في نهاية خمسينات القرن الماضي، كانت مدرسة الرهبان تفتح أبوابها صيفًا لاستقبال تلامذة المْتَيْن والجوار، يتدبّر أمرهم معلّمون مِنْ «أُخُوخ يتهيّأون» و«رهبان متهيّئين».

وكناً في بيروت نرتاد مدرسة علمانيّة بلا تلاوين دينيّة ولا مُفرقعات طائفيّة، يرتادها خليط من طلّاب يجمعهم كتاب واحد يقرأون فيه جميعهم حتى إذا حلّ المساء قصدوا مرابض خيولهم ومهاجع أهاليهم وعادات أديانهم وتقاليدها، ليستيقظوا في صباح اليوم التالي عائدين إلى ذلك الكتاب الواحد.

أخبرني إبن عمّي ذات يوم، أنّه يستعد للذهاب في اليوم التالي أو الذي بعده، الى مدرسة الرهبان الصيفيّة. عشية ذلك اليوم بالذات سمعت أبي يقول لأمّي: «ولماذا لا نسجّل شربل في مدرسة الرهبان هذا الصيف، وْلادنا رَحْ يطلعوا بلا دين». كان أبي مغاليا مزايدًا! فقد كان الدين والطقوس والشعائر الدينيّة وصور وأيقونات القديسين شغلنا الشاغل في مهاجعنا ومهاجع أهلنا طوال أيّام الأسبوع.

لقد بدأ أبي يُعدّني للقربانة الأولى منذ الصّف العاشر، فغيَّبت الأبانا والسلام وجعلني أغيّب فعل الندامة في الصف التاسع وكذلك فعل الإيمان الذي يبدأ بـ«نؤمن بإله واحد...»، وقد حفظتُ النصّين الطويلين ببّغائيًا عن ظهر قلب، لأتخلَّص من مماحكات أبي. ثمّ عاد وسجّلني في بيت الرعيّة بجوار منزلنا في الأشرفية، ورافقني للمثول أمام فتيات «قدّيسات»، مرشدات مدرَّبات على تعليم الأولاد مبادئ الدين المسيحي بعد قدّاس الأحد. فأطعت، لا صاغرًا ولا مختالًا، غير أنّ الجوّ الذي كان سائدًا بين هاتيك «القدّيسات» لم يعجبني فتمنّعت في الأحد التالي ولم أجارِ أبي. كان أحدًا تاريخيًّا، ذلك الأحد، إذ دوَّت في رأسي يومها رنّة الصفعة الأولى على «خدّي الأيمن» كما سمعت صوتًا في داخلي يلعن القربانة الأولى.

بعد أيّام على إتمام تسجيلي في مدرسة الرهبان ترافقت وابن عمي على دروب القادوميّات بين حيّ مار جرجس وحيّ مدرسة الرهبان. الطريق طويل بين الحيّين لولا إلقاء السلام، عملًا بتوصيات الأهل، على الجيران والأقارب والمعارف الذين كنّا نصادفهم على جانبي المعابر في مشوارنا المُمِلّ.

وصلنا باكرا فتجمّعنا مع مَن تجمّع من الأولاد في ملعب المدرسة، كان منهم مَنْ نعرف، وجرى التعارف بمَن لا سابق معرفة بيننا وبينه، ومنهم جماعة من القاطنين في المدرسة يشعرون بأن البيت بيتهم. وكان من بين هؤلاء أمين الدكّان الذي كلّفه الراهب الإهتمام بعمليّات البيع والنظارة، وقد عُدْت والتقيته بعد زمنٍ بائعًا وناظرًا ورئيسًا لبلدية المنصورية.

دخلنا الصف الذي وجّهونا إليه ودخل وراءنا راهب قيل لنا إنه «بَير أنطوان Père Antoine» فهدأ التلاميذ وانتصبوا واقفين وشرعوا بالـ«نوتر بير» Notre père qui êtes aux cieux (أبانا الذي)، فنظرت باتجاه ابن عمي متسائلًا عمّا يحدث فوجدته ينظر باتّجاهي مبتسمًا، وإذ بيد «بير أنطوان» تهوي بسرعة البرق على خدّي الأيسر فارتميت أرضًا مغشيًّا عليّ. ومن صفعة الى صفعة، ومن أيمن الى أيسر، صرت أخشى الصفع الدينيّ إذ تيقّنت أنه صفع غدّار يطالك من حيث لا تدري ولذنب لم تقترِفْه.

فأنا ابن مدرسة يقف تلامذتها إحتراما للمعلّم الداخل عليهم ثم يجلسون. بلا مقدّمات ولا مؤخّرات ولا صلوات كمثل «نوتر بير» التي لم أتعلّمها قطّ، بل علّمني إياها والدي بـ«العربي» ولقد كلّفني جهلي بالترجمة آنذاك رجمًا صاعقًا، وكأن ذاك الرجل شاء أن «ياخذ بتار» «نوتر بير» الذي في السموات من ولد في السابعة من عمره.

رجع ذلك الولد للتَّوّ الى بيته مكسورًا. ولمّا مرّ بمحاذاة كنيسة مار جرجس قبّل حائط الكنيسة على جَري عادته، وحطّ في منزله باكيًا شاكيًا متوعّدًا رافضًا العودة الى المدرسة الصيفيّة في اليوم التالي.

لم يكن باستطاعة ذلك الولد أن يستخلص دروسًا وعبرًا، إلّا أنّه وبعد أكثر من نصف قرن صار ذلك الولد الستّينيّ متيقِّنا من أنّ المسيحيّين، حتى المسيحيّين، في لبنان لم يقرأوا في كتاب واحد، ولا يزالون الى غيّهم يسعون، والى ابتعادهم عن لبنان يَجِدّون.

كنيسة مار جرجس،
١٩٤٨

في جوار مار جرجس

أمّا مار جرجس المْتَيْن، فلا أنا ابتعدت عنه ولا هو ابتعد، رغم الدّمار الذي لحق ببيته وبيتي في آن واحد، في العام ١٩٧٦.

جوار مار جرجس يبدأ عند بيوت آل بلّوط والحلبي ومرداس والصّباغ والخرّاط وينتهي في حيّ المنطرة حيث بيت القنطار والنجّار، مرورًا بآل الحاج وحبيقة. واعذرونا إن نسينا أحدًا على الطريق. وبالإضافة إلى الأراضي الزراعيّة الغنيّة في «عَوْدة تحت الشوار» وغابات الصنوبر الرائعة في كرم التين وحفّة المرقد يَشمُل جوار مار جرجس ضيعة أموات الرعيّة منذ تكوَّنت الرعيّة في العام ١٦٧٢.

كانت ضيعة الأموات صغيرة ومتواضعة، هادئة وهانئة، فيها يتساوى من هم تحت التراب، ساخرين من الذين فوقه. فالأموات خَبِروا ذلك المبدأ الدّاعشيّ الرهيب «انت من التراب والى التراب تعود» بعد جَزَعٍ... غير أنّهم ظَلّوا يَسخَرون.

في ذلك الزمان، لم يقل الرّبّ يسوع بل السّجِل قال إنه قد غادر هذه الفانية في العام ١٨٣٢ شخصان فقط هما «حرمة» سليمان بو نادر و«حرمة» عبدالله كْلَيبْ، والعام ١٨٣٣ قضى صعب حَنْكِش ونعمة الله البِشْوَاتي الكاثوليكيّ المذهب ودُفِنا بجوار الكنيسة. كان سَكَنُ البشواتي على مقربة من كنيسة مار أنطونيوس «الكاثوليكيّ»، تلك الكنيسة التي لم يُنجَز بنيانها قبل العام ١٩١٩. وكان الرّوم الكاثوليك من أهل المْتَيْن روّاد مار الياس عين الصفصاف وزوّار دير مار يوحنا الشوير، في ما خصّ العماد والتثبيت والخطبة والزواج. أما في موضوعي قدّاس الأحد والتَّنْبِيح (الدفن) فكان مقصدهم وملاذهم الأخير مار جرجس «الماروني» في المْتَيْن. وحدهم آل صرّوف إبتنوا مدفنًا لهم قرب كنيسة مار أنطونيوس «الكاثوليكي» وما لبثوا أن نقلوه إلى جوار مار جرجس «الروم».

يعني ذلك أنّ كنيسة مار جرجس «الماروني» لم تكن كنيسة مارونية فحسب، بل الكنيسة وشفيعها كانا مارونيّين وكاثوليكيّين ودرزيّين،

وحتى أرثوذكسيّين حين تدعو الحاجة الإلهيّة الماسّة. ونحن لا نطلق الكلام على هوانه كما يقول المتضلّعون فـ«بُونا عبد الأحد المْروجيّ» حضن في أربعينات القرن العشرين «أروامًا» ثلاثة أسعفهم في انتقالهم من أرض البور الى أرض الحبور، يوم عزّ وجود كاهن أورثوذوكسيّ، على ما تمّ تدوينه في سجلّ مار جرجس الماروني في باب «التنييح» ولا حاجة إلى ذكر أسماء المُنَيَّحين هؤلاء.

ولم يدفن في ضيعة الأموات تلك، أكثر من ثلاثة مُنَيَّحين في السنة الواحدة. ففي العام ١٨٣٥ دفن في ضيعة الأموات ثلاثة ولم يتعدَّ المتوَّفون الستّة في العام ١٨٧٩، وهو الرقم الأعلى بين العامين ١٨٣٢ و١٩١٥. بعد ذلك العام وحتّى العامين ١٩١٦ و١٩١٧ كان المرضى والجياع يتساقطون بالعشرات فما لبثت تلك الضيعة أن تحوّلت إلى حفرة دُفِن فيها في العام ١٩١٦ مئة وإثنا مُتوَّفٍّ من أبناء الرعية، وكانوا من الروم الكاثوليك والموارنة وما خالفهم من أروام ودروز. أمّا الأمراء، أصحاب المناصب، فلم يَدفُنوا موتاهم الى جانب موتى فلّاحيهم، بل إستمرّوا يدفنون بعد تنصّرهم في العام ١٨٣٥ حيث كانوا يَدفنون لمّا كانوا دروزًا. أمرٌ واحد تغيّر، فقد حلّتْ «الآب والإبن والروح القُدس» محلّ «الله الرحمن الرحيم»، والقولان محدودان بثلاث كلمات عند هؤلاء جميعهم، وهؤلاء جميعهم، من دروز ونصارى وغيرهم، سواء فطنوا أو جهلوا أو شاءوا أو رفضوا... هم موحِّدون.

لا أعلَم كيف تغيّرت «أنت من التراب وإلى التراب تعود» فصارت «أنت من الجارور والى الجارور تعود». إلّا أن ذلك لم يتغيّر دون سواه بل رافقه تبدّل في المناصب والمفاخم والعقليات والنفسيّات.

فبعد مذابح الـ ١٨٦٠ في جبل لبنان، تحرّر أهل الرّعايا من سطوة الإقطاع وفي السّياق عينه تحرّروا من الصّفعِ المتهاوي على رقابهم فشرعوا يصفعون رقاب بعضهم البعض، يجرّ واحدهم الذيل تيهًا كأنّه فوق كل أميرٍ أميرٌ. فقد إنتعل أبناء الرعيّة الأحمر ودخلوا ساحة الميدان وتوقّفوا عن تحسّس رِقابهم كلّما مرّوا أمام باب المشنقة. لقد إشترى المهاجرون قصور اللمْعيِّين، ومن مال الهجرة بَنوا الحارات على

مثال قصور أمرائهم، بل على مثال قصور فلورنسا وأكثر، ثمّ شرَعوا بإعلاء القبب فوق مقابرهم وإعلاء الجوارير طابقًا فوق طابق.

ليس الأمير بالطبع فلّاحًا والعكس صحيح. فالهجمة لبِناء المقابر في جوار مار جرجس «الماروني» في المْتَيْن أثبتت أن الماضي تفجّر ليثبت كل امرئ للآخر أنّه هو الأقوى والأغنى والأذكى حتى في الممات، وقد نتج هذا الأمر عن القهر الذي عانى منه الفلّاح والمَعّاز والحِرَفيّ وممّا راكمه الجبلي من قهر وفقر وجوع في كلّ أنحاء جبل لبنان ولم تكن المْتَيْن في منأى عن ذلك، فانقلب القهر تكابرًا والفقر تشاوفًا، فُقِدَتْ نِعمة الوَداعَة وانتفت العفويّة، وصارت البسمة، حتى البسمة، حركة مدروسة ومفبركة. أَوَ تتساءلون بعد هذا الشرح لماذا الناس لا يتحابّون وعلى المناصب المارونية الرفيعة يتذابحون؟

هذا ما جناه الماضي علينا، وما جنينا على أحد.

كنيسة مار جرجس إثر حرب ١٩٧٦
في المتين

الخوري خليل، الأستاذ جوزف أبو عقل والدّاعي...

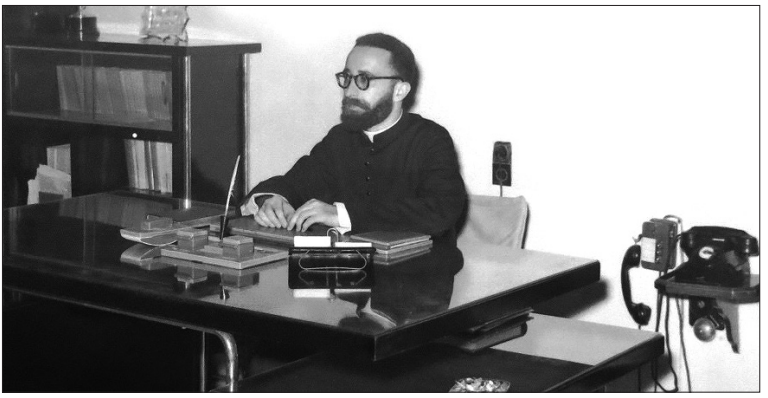

الخوري خليل أبي نادر*

جوزف أبو عقل* وما أدراك من جوزف أبو عقل! جوزف في نظري، ومنذ صغري وعلى مسمعي من أبعدين وأقربين، «شعلة ذكاء» كما يقال في ديارنا أو صاحب ذكاء متوقّد، كما يُرَدّدُ في لغة دنيا العرب. وكان ولا يزال يطيب لي أن أقصد دار الكتب التي يشرف عليها فأتعرّف إلى جديدها، وأتزوّد وأستزيد من تجارب الآخرين في الأدب والتاريخ والسيرة الذاتيّة، تقدّمها تلك الكتب المعلّقة جنائن على رفوف دار الفارابي الواسع الإنتشار والكامل الإقتدار.

أقصد دار الفارابي في عمارة تلفزيون الجديد. أدخُل الدّار متجنّبًا جوزف أبو عقل محاذرًا المرور من أمام مكتبه، ذلك لأنّ جوزف إن رآك في الدار، أو تعرّف الى آخر غيرك من أبناء ضيعتك ضيعته، غازيًا «ديار» الفارابي، أسرع نحوك مرافقًا بين الرفوف ليحمّلك الكتب كتابًا فوق كتاب.

ولكن... ليس في كل مرّة تسلم الجرّة، ولا بدّ بين زيارة وأخرى أن يقبض عليك جوزف متلبّسًا بجريمة التخفّي فيدعوك إلى مكتبه ثم إلى جولة بين الرّفوف، ينتقي لك خلالها من ثمار حديقته، ما لذّ وطاب.

* الخوري خليل، المطران خليل أبي نادر: مُتَيْنيّ كبير ولبناني أكبر ١٩٢١-٢٠٠٩.

* جوزف أبو عقل: مْتينيّ، مدير «دار الفارابي». والدّاعي....

منذ حواليّ السنة، قبض عليّ جوزف متلبّسًا بالجرم... فدعاني الى مكتبه وكنت يومها مشغولا بالكتابة عن لبنان الكبير، فتحادثنا، ثمّ إنزلق الحديث باتّجاه متين «أبونا خليل» تحديدًا. ولم أكن على علم بأنّ علاقة صداقة، بل «زمالة» كانت تربط بين المطران والفتى الأحمر.

عندما أتيت على ذكر المطران، قال لي «شو بدّك منّو»، هيدا زلمي كبير، فضلو على المْتَيْن وغير المْتَيْن، فضلو كتير كبير!

إسمع يا شربل!

«أنا بيّي ما كان معو مصاري يبعتني عا مدارس بيروت، ولكنّه كان يشتغل «جْنَيْناتي» عند الست روزالي* سَعَفِتُو السِّت لبيّي ونزِلتْ عمدرسة الحكمة سنة ورا سنة. في سنة سألِتُو الست روزالي سؤالْ للمرحوم بيّي «بِوَزِّه» من بديع الناظر العام ببيت يوسف صرّوف، فزِعِل منصور*، وبلا سلام ولا كلام ترك الشغل وضل تاركو».

كان الخوري خليل في تلك الأيّام مدير مدرسة الحكمة في بيروت، يتردّد على المْتَيْن في نهايات الأسابيع لزيارة والدته، وكانت المدرسة قد فتحت أبوابها. صادفني على الطريق فسألني: «لماذا لم تنزل بعد إلى المدرسة؟» فحكيت له حكاية والدي مع الستّ روزالي. نظر الى أسفل، وبهدوء ما بعده هدوء قال: روح «ضب تيابك» أنا نازل الليلة، وكان يوم أحد، بتنزل معي! ولمّا حاولت أن أكرّر الشرح والتّعليل، نظر إليّ وقال: «هيدا مش شغلك»! قالها بشكل عسكريّ صارم.

وهكذا حصل... وهكذا أكملت دراستي في الحكمة على يد معلّمين طيّبين متضلّعين أسياد إختصاصاتهم، ومنهم أستاذ اللغة الفرنسيّة والرياضيّات إبراهيم الغريّب الذي كان يصطاف وعائلته في المْتَيْن، تارة في منزل وديع إسطفان وطورًا في منزل جرجس الحدّاد أو في منازل أخرى، حتى صار الأستاذ إبراهيم فردًا من أفراد الأسرة المْتَيْنية وصار أولاده أسعد وأكرم وسعاد وسليمان وفادي جزءًا من نسيج المْتَيْن ورفاق مشاوير وألعاب أولاد الضيعة في الصيف وأصدقاء المْتَيْنيّين الحِكمويّين على مدار السنة.

* الست روزالي، إبنة عبدو قرياقوس أبو سليمان وزوجة يوسف صرّوف ووالدة أندريه وروجِه وبوليت.

* منصور والد جوزف.

قال لي ذلك الأستاذ يومًا: «عجيب أمرك يا جوزف، مرة عشرين على عشرين بالرياضيّات ومرّة صفر شو بيصرلك»؟ نظرت إليه «خجلان» وقلت: «وقت الْلي بفهم المسألة بحلها وقت الما بفهم ما بحلها، أنا مش دايمًا بفهم فرنساوي».... ومنذ ذلك اليوم صار الأستاذ إبراهيم، وكلّما طرح مسألة حسابيّة، يحاول بطريقة أو بأخرى شرحها باللغة العربية، كما شجّعني على التمكّن من اللغة الفرنسية، وهكذا حصل ولم تعد علاماتي «تنزل» عن العشرين في الرياضيّات تحديدًا وقامت بيني وبين ذلك الأستاذ «الإنسان» صداقة إستمرّت حتى رحيله عن هذه الدنيا.

يروي جوزف: كنت في الحكمة أتعلّم وأعلّم وبعد أن أنهيت دروسي طلب منّي بونا خليل التدريس المتواصل فدرّست ثمّ وبسبب إنخراطي في الحزب الشيوعيّ دُعيت الى مهام حزبيّة خارج لبنان، فتركت التدريس في الحكمة وسافرت.

رجعت بعد سنتين، وكان عليّ أن أتدبّر عملًا، فدعاني الأستاذ إبراهيم الى معاودة التدريس في الحكمة على أن أقابل البونا خليل وهذا ما حصل.

إستقبلني الخوري خليل بالبسمة واللطافة، وهو العارف بالغاية من تلك الزيارة. وبعد دقائق قال لي: «يا جوزف أنا وانت أصحاب مهنة وِحْدِه. أنا أدعو للمسيح وأجمع زبائن للمسيح وأنت تدعو لماركس وتجمع زبائن لماركس، فكيف تريدني أن أفتح لك مجالًا لَـ «تْقِشْ» من زبائني»؟

ضحك وضحكت، ثمّ غادرت على أمل اللقاء. وكم عدنا فالتقينا وحتى إننا سافرنا معًا عدّة سفرات وترافقنا في عدّة رحلات سياحية متنوّعة الآفاق. بونا خليل كان رجلا عظيما، قال لي جوزف خاتمًا ذلك الحديث الشيّق.

وللذكرى...

بونا خليل حاضن العديد من أولاد المْتَيْن وما تيسّر من عائلاتها.

توفى الله والدي باكرًا وكان مدرّسًا في إحدى المدارس الكبرى في بيروت. لم يتأخر البونا في مدّ يد العون. لقد آزر الوالدة واهتمّ بإدارة بعض مدّخرات البيت فثمّرها في إحدى المؤسّسات التجاريّة وإستمرّت الوالدة تستفيد من مردود تلك المدّخرات على مدى خمس عشرة سنة من غير أن ينقص من تلك المدّخرات ملّيم واحد. كما أنه وفّر لوالدتي من خلال «المطران زيادة» مُنَحًا تعليميّة لي ولشقيقي وشقيقتي في مدارس الحكمة، إلا أننا تابعنا دروسنا حيث كنّا نتعلّم شاكرين عطف ذلك السّند الطّيب.

وبحكم الجيرة، وكنّا نمضي الصيف في منزل مجاور لمنزله على طريق العين... كان بونا خليل يزورنا ويدعونا إلى القداس كلّ يوم، وهذا ما كنّا نتهرّب منه من وقت إلى آخر، أنا وشقيقي أنطوان. فنحن لسنا «دَقَّة» حكمويّة بل رقصة علمانيّة لا تعادي ربّ العالمين، ولكنها تبقي بينها وبينه مسافة من الأمان المتبادل. لذا كان القدّاس اليوميّ لا يعنينا، ولا يفسد علينا لهو أيام العطل ولا ودّ ذلك الأب الكريم. أما في أيام القِطاف، قِطاف التفاح في نهاية أيلول، فكنا وأولاد شقيقه فؤاد، رفاقنا، نلتزم «مشروع» قِطاف تفاح عين الخندق على أول طريق مْشِيخا، وتوضيبه، وأجرنا عند الله وعدٌ بأن يذكرنا في قداديسه، أجرٌ يمنّ به علينا الخوري خليل ضاحكًا، كلما أفرغنا حمولة شجرة أو شجرتين.

كان بونا خليل من الأتقياء الظرفاء النشطاء. ما من أحد جاوره أو لازمه في سلك التدريس إلّا وأقرّ بطول باعه وروعة أدائه. ولنا عودة الى هذا الحديث!

كان يقفز الدرج ثلاثَ ثلاث، رافعا جبّته كيلا يتعثّر. ما من تلميذ إلّا ويخشاه أو كاهن إلّا ويداريه ولا معلّم إلّا ويهادنه. «وَهْرَته» تجتاح الجميع، والجميع يهابُه من اللقاء الأوّل.

لقد وصلت مواصيله الى درك مخفر حبيش، وكان عناصر ذلك المخفر مولجين بمراقبة وحماية منطقة تمتد لتشمل محلّة القنطاري، حيث كنيسة مار الياس ومدرسة الحكمة للإناث، وكان الخوري خليل

راعي الكنيسة من جهة، ومسؤولًا عن مدرسة الحكمة في جوار تلك الكنيسة، من جهة أخرى.

وذات يوم أحد باكرًا تحت زخ الرصاص المقاوم من هنا، والعميل من هناك أو بالعكس إجتاز بونا خليل الرينغ* «غندرةً» باتجاه مار إلياس ليقيم الذبيحة الإلهية، فلا يتغير شيء على أبناء تلك الرعية المأزومة في محيطها. باكرًا غدا الى القنطاري، وبانتظار موعد القداس جدّ بإتجاه المدرسة، عساه يتفقدها، وإذ به يرى على مدخلها حمارًا مطروحًا قتيلًا في الأرض ولم يكن قد مضى على مقتله ساعات. دخل المدرسة واتّصل بالمخفر شارحًا الوضع. ويبدو... أن العنصر المناوب على الجانب الآخر من الخطّ أراد ممازحة الخوري فقال: «يا أبونا! الحمار مات والكنيسة قريبي، صلّوا عليه وادفنوه» فأجابه بونا خليل: «نحنا مش رح نقصِّر، شغلتنا ومِنعرفا، بس ما فينا نبدا بالمراسم قبل ما يشرّفوا أهل الفقيد، لها لسبب عم إتّصل فيكم... ناطرينكم». وبحسب ما أخبرني الخوري خليل أنّ جماعة حبيش في تلك الأيام أسرعوا بالمجيء، وقاموا بواجبهم بين ضحك واعتذار.

* الجادة التي تربط الأشرفيّة بالقنطاري.

ما الحبّ إلا للحبيب الأول!

عدت في العام ١٩٩١ من سفرة استمرّت سنوات ثلاثًا، تنقلت خلالها بين جزيرة قبرص وفرنسا وسائر أوروبا بحثًا عن زبائن ومشاريع في ميدان الأرشفة الإلكترونيّة، وهي تقنية كانت يومها في عزّ إنطلاقتها. ومن باب «مُكرَهٌ أخوك لا بطل»، إستجرْت بقبرص التي أمّنت لي ولعائلتي مقرًا ومهجعًا وملاذًا نركن إليه وفريق من المساعدين اللبنانيّين السّاعين الى رزقهم، والذين استظلّوا كغيرهم قبرص القريبة، هربًا من اقتتال الأخوة الأعداء إقتتالا مافيويًّا قضى على الجيش والميليشا المسيحيّة في آن واحد، كما عمّق جذور الإحتلال السوري الذي حقّق الإنتصار تلوَ الآخر من غير أن يكلّف نفسه الضغط على الزّناد في وجه من تكفّل بأن يقضي على ذاته بذاته.

قرّرتُ وزوجتي العودة الى لبنان، بعد أن وثِقنا من هدوء الأحوال، فتقاسمنا الأدوار. تختم شادِن، زوجتي، آخر نشاطات السَّنة، وتقفل مكتب قبرص، على أن أحضِّر في لبنان مكتب بيروت إستعدادًا لإطلاق الأعمال في أوّل يوم عمل من العام ١٩٩٢.

كانت ابنتي الكبرى سُلاف من حصّتي وأعزّ حقائبي في رحلة العودة.... فحاولت أن أوفّر لها سُبل الإطمئنان الى تلك الآفاق الجديدة المغادرة إليها.

دخلنا مطار لارنكا المتواضع فأجلستها على مقعد مريح وأمّنت لها الماء والحلوى، ولمّا صعدنا إلى الطائرة، جلسنا في المقاعد الأماميّة فبانت سُلاف أميرةً في غاية الجمال، غارقة في ذلك المقعد الواسع الأنيق.

كانت سيّارة التاكسي التي تنتظرنا عند بوّابة مطار بيروت، أولى العثرات وهي من موديلات ما قبل ١٩٧٥. فما إن دلفنا إليها حتى إنهارت في عَينَيّ سُلاف كلّ التحضيرات التي أعددتها منذ إنطلاقتنا وكلّ الحكايات التي حكيتها لها عن لبنان. تهاوى كل شيء فكان سؤالها عن

هيكل السيّارة المتداعي وفرشها الممزّق ثم لاحظَتْ على طول الطريق تكاثر الحفر وتعدّد عواميد الكهرباء المدمّرة فسألتني عن السبب... ثم أصرّت عليّ أن نعود، نعود من حيث أتينا!

وما هي إلّا دقائق حتى وصلنا إلى بيت شقيقتي إيليان، وسُلاف حزينة تُمسك بيدي وتشدّ مصرّة على لازمتها... أريد أن أعود!

إستقبلتها إيليان بـ«يا تقبْريني» وهي النغمة التي لم تتوان عمّة جبليّة لبنانيّة، ولو من سكان باريس، عن استعمالها في استقبال أولاد شقيقها. دخلنا المنزل، وفاضت الشوكولا وكثرت الألعاب وإنهمرت القبلات. إرتاحت فتاتي واستقرّت في حضن عمّتها، كزهرة تغبّ من نبع فيّاض، حتى آن أوان زيارة منزل جدّتها لأمّها. وهناك أيضًا، وما إن وصلنا حتى استُقبلت سلاف بمهرجان من القبلات والهدايا والضحك والفرح بالصوت العالي المحبّب.

عدنا الى البيت وبدأتُ بتحضير ما يلزم لتنام أميرتي، فاقتربت منّي ونظرت إليّ بعينين أراهما اليوم في محيّا ابنتها وقالت بالفرنسيّة: أتدري يا أبي! اريد أن أبقى هنا، هنا أحسن. لم أفاجأ، فما لاقته سُلاف من حُنوّ الأحبّة، إنسحب على المكان فغمرَها دفؤه.

كان موقف سُلاف إشارة، لا بل بادرة خير فانطلق العام، وانطلق معه العمل، ومضى العام وتوسّعت الأعمال وصرنا في مشاويرنا العائليّة بين آحاد وأعياد نطلّ على المْتَيْن، نتفقّد من بقي لنا فيها، من أتراب وأحباب وحجارة وتراب.

«وعليك عيني يا دمشق فمنك ينهمر الصباح»

-سعيد عقل-

في أوائل تسعينات القرن الماضي وبعد أن هدأت الحرب، عاد نصري أبو سليمان عازمًا على إعادة «البيت» كما كان يحلو له أن يردّد. بدأ بإزالة مخلّفات الهمجيّة التي اسْتشرَت العامَ ١٩٧٦، وشرع يُعلي دارته، وكان إدوار الشويتر قبله بفترة قصيرة، قد حرّر منزله من قاطنيه السوريّين وقام بترميمه، وأظنّ أن إدوار سكن بيته قبل نصري بقليل.

لقد شجّعني حماس الرّجلين النَّسيبين، وتكرَّرت زياراتي إلى المْتَيْن وصار تَوقي الى سُكناها يزداد، فأيقنت أنّ عليّ أن أحذو حذوهما، وأعيد بناء بيتي الذي تحتلّه فرقة من الجيش السوريّ، تتدبر أمورها في بيت خَرِب كما تتدبّر أمورها سائر الجيوش المتنقّلة في زمن الحروب.

زرت في صيف العام ١٩٩٣ وخريفه عددًا من السياسيّين الذين أعرفهم بالمباشر أو بالواسطة ظنّا منّي أنّ باستطاعتهم مدّ يد العون ومساعدتي على إخراج تلك الفرقة العسكريّة من منزلي وجواره.

لم أجد عند هؤلاء ما سعيت إليه، فمساعدة من هذا النوع تتطلّب شجاعةً في الإصرار، ولم يكن ذلك متوفّرًا في أيّ مكان من لبنان. فالحاكم في لبنان حاكم بالإسم، دوره الحقيقيّ «روح روح - تع تع» عند السوريين. بسرعة فهمت وبسرعة أوقفت ذلك «الزيّاح» الثقيل الذي سرت فيه مكرهًا، وفق نصائح الأحبة في المَتنين وشمال لبنان.

كان هذا «الزيّاح» في عرض قضيّتي على الزّعامات، من التصرّفات التي لم أمارس مثلها من قبل وخرجت منها ذليلًا أو هكذا شعرت. فقلت في نفسي: دعك من الرّكض خلف الأشباح. هؤلاء زعماء علينا، وليس لديهم كلمة مسموعة عند سوانا فـ«ما حكّ جلدك مثل ظفرك» يا صبي، إذهب ولسانك إلى بيت القصيد مباشرة، الى بيت القصيد وحيدًا... ولن تندم.

في نيسان من العام ١٩٩٤ وكان الربيع قد هلّ، توجّهت برسالة إلى عميد سوريّ كان يقطن في قصر نايف عماد في ضهور الشوير، وكان قد قيل لي إنه الآمر الناهي في ناحيتنا في المتن العالي. ضَمَّنت الرسالة شرحًا لحالة منزلي، طالبًا الإجتماع به، مدوّنًا رقم هاتفي ومكان سكني. لم تمض أيامٌ قليلة حتى إتّصل بي أحد معاونيه وحدّد لي موعدًا قريبًا سارعت إلى تلبيته محيّيًا شاكرًا، عارضًا الموضوع الذي أتيت من أجله.

كان العميد – ذلك العميد! – فارسًا شهمًا غاية في التهذيب. وبعد أن «سايرني» بكوب من الشاي دعاني إلى زيارة موقع بيتي، عساه يحرّره بسرعة فيُريح ويَسْتريح بحسب قوله.

غادرنا ضهور الشوير باتّجاه المْتَيْن بسيّارتي، تواكِبنا سيّارتان عسكريّتان. ولا أدري ماذا دهى العميد، فأطلق العنان لأريحيَّته، وراح يردّد أبياتًا من الشعر حفظها عن ظهر قلب. اغتنمتها فرصة وبادرته بأبيات شِعر للشاعرِ عينه، ومن القصيدة نفسها، كلما هدأت أريحيّته واستكان. وتدبّرت أمري فحشرت بين بيتين من الشعر بيتين لأبي تمّام يقول فيهما:

نقّل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحبّ إلّا للحبيب الأوّل
كم منزل في الأرض يألفه الفتى وحنينه أبدًا لأوّل منزل.

فردّ مباشرة:

نَقِّلْ فُؤادَكَ حَيثُ شِئتَ فَلَنْ تَرى كَهوَى جَديدٍ أو كَوَجهٍ مُقبِلِ
عِشقي لمنزلي الذي استحدَثْتُهُ أمّا الذي ولّى فَليسِ بِمَنزلي

فأجبت:

قَلبي رَهينٌ بالهوى المُقتَبِل فالوَيلُ لي في الحبِّ إنْ لَم أعدُلِ
أنا مُبتَلى بِبَليَّتينِ مِن الهوى شَوقٌ إلى الثاني وذِكرُ الأوَّل

كانت ردّة فعله سريعة فقال: إي حاج تلطّيش فهمنا....
فضحك وضحكنا.

وصلنا إلى البيت في حيّ مار جرجس، فحيّاه الرّهط بالأبّهة وفائق الإحترام. دار العميد في الدار وحوله وحواليه، ثم قال: يا ريت إقدر أعطيك البيت! هادي بيوت بعيدي عن بيوت الناس وحاطّين فيها «زخاير» ما تواخذني ما ممكن أبدًا.

لم ألِحّ. شكرت العميد الذي استأذن في العودة بإحدى السيّارتين المواكبتين ونظر في عينيّ وقال: شربل تبقى مرّ علَيي عالضهور، حلوي جلستك منشَرْبَك شاي ونقرا شعر فشكرته واعدًا.

صارت مشاويري الى المْتَيْن تتضمّن في برمجتها زيارة ذلك العميد الشّهم، وصارت أحاديثنا تتنوّع وتتفرّع فإذا بي أكتشف فيه بالإضافة إلى تذوّقه الشعر تذوّق الموسيقى ولوحات الرسم. والى ذلك، فهو صيّاد ماهر يهوى السلاح وفارس مغرم بالخيل... ولمّا تعمّقت المعرفة بيننا قاربنا السياسة من باب التاريخ، ثمّ السياسة كما نعايشها ونعاني منها، ولم يكن موقعي لصيق موقعه فقَبِل واحدنا رأي الآخر من غير انتقاصٍ من كرامته، واستمرّينا كما لو أنّ الحديث في السياسة كالحديث عن استطياب ماء أو مَنّ وسلوى.

إستمرّ الحال على هذا المنوال طوال العام ١٩٩٥، والقسم الأوّل من العام ١٩٩٦ سنة الإنتخابات النيابيّة، تلك السنة التي صار فيها للمْتَيْن نائب في البرلمان.

يوم الأحد الواقع فيه السادس والعشرون من آب من ذلك العام، وكان يوم إنتخابات نيابيّة، قصدتُ المْتَيْن، قمت بالواجب الانتخابيّ ثمّ توجّهت مباشرة إلى حيث منزلي، علّني أزوره وأجلس مع أحد قاطنيه بالإكراه. كان الحارس في انتظاري ليقطع عليّ الطريق بجسمه الهشّ ويقول:

– ممنوع أستاذ، النقيب مو هون.

فأجبته:

– ما همّ! سأتنزّه قليلا في الحديقة ثم أعود أدراجي.

لكنّه أصرّ مكرّرًا:

– النقيب مو هون، يعني أنا ما قادر إسمحلك.

أدرت محرّك السيّارة منطلقًا، والغضب بادٍ على وجهي. فَطِن الجنديّ الى ما أنا عليه وفيه من حزن وغضب، فضرب على باب السيّارة بكفِّه قائلًا: «تمهّل تمهل»، توقّفتُ فأردف: «أعتذر منك مجدّدًا ولكن إسمعني! سنغادر بيتك بعد يومين أو ثلاثة أيّام، أسرع إلى استعادته قبل أن يأتي فريق آخر ويقطنه». كان يحدّثني بلغة المتأكّد والناصح المصرّ على مجيئي وانتزاع بيتي من دوّامة تبدّل الأسراب المستبيحة. شكرته ونقدته مبلغًا من المال وأعطيته رقم هاتفي على أن يعلِمَني بموعد المغادرة ساعة المسير.

لم أتحدّث بالموضوع مع أحد! عدت أدراجي إلى منزلي الصيفيّ في فاريّا أنتظر نتائج الإنتخابات وألعب الورّق مع جيراني هناك. حتى زوجتي لم أقل لها شيئا كما لم أتّصل بالعميد الصديق لأستوضحَه الأمر.

في صباح اليوم التالي توجّهت وزوجتي إلى العمل، وكنا نغدو باكرًا هربًا من زحمة السير التي سرعان ما تهبط على الأوتوستراد الرّابط بين جونية وبيروت. وعلى الطريق أخبرت زوجتي بالجديد المنتظر، فهلّلت وهنّأت وباركت على الرغم من أنّ هذه النقلة إن حصلت ستقضي على شغف شادِن بالإصطياف في فاريّا بين سلوى الأصدقاء ولهو الأولاد.

هاتفني الجنديّ السوريّ بعد أيّام وقال: «نحن نغادر بعد ظهر اليوم». كنّا في الثاني من أيلول، وفي صباح الثالث منه إنتقلنا أنا وزوجتي وابنتَاي ومعنا ما خفّ حمله: طاولة بلاستيك وبضع كراسي وعلبة فيها ما استطعنا شراءه ممّا يسدّ الجوع ويمرّر الوقت.

وصلنا المْتَيْن وإلى البيت بالذات، فإذا بالأرض حفراء نفراء. أخرجنا ما حملناه معنا فركّزنا الطاولة وصففنا الكراسي وأجبنا عن أسئلة الأولاد، وبدا الموضوع بالنسبة إليهما مقتصِرًا على حفلة «بيكنيك» في مكان خَرِب مقفِر مُقْرِف. وما هي إلّا دقائق حتى أطلَّت خالتي نهى وكانت تمارس رياضة المشي صباحًا، وبيتها ليس ببعيد عن بيتنا، فأعلمتها بما حصل. سارعت إلى إخبار أولادها وطرحت الصوت على